جامعة البصـــــرة

كليـــــــة الآداب

قسم اللغة العربيـة

الذكـــــــرى في الشـــعر الجاهلـــــي

المدرس الدكتور

نجاح مهدي علوان

قسم اللغة العربية / كلية الآداب

المقدمة :

تمثل الذكريات بالنسبة إلى الشاعر الجاهلي رافدا من روافد الإلهام الشعري ، إذ أن الشاعر في كثير من الأحيان يغترف من هذا النبـــع الذي يمثل له خزينا وثروة شعرية- لا يمكـــن له مهـما أوتي من شـــاعرية فذة أن يتجاوزه ويتخطاه- تغذي أفكاره وموضوعاته وصـــــوره الشعرية .

فالذكريات تمثل ماضي الشاعر، ذلك الماضي الذي طوته السنون والأيام ،غير انه ظـــل حيا في ذاكرته، يحاول الشاعر استرجاعه وعيش أيامه والتمتع بهـا وهـو يعيش حاضـــره المرير بكل تناقضاته وإفرازاته .

وعند تأملنا للشعر الجاهلي واستقرائنا المتأني والدقيق له ، وجدنا أن الذكرى ترد تارة فـــي موقف الأطلال ، وتارة أخرى في موقف الرحـــيل ، وتارة ثالثة ترد والشاعر يخوض تجربـة الشيخوخة ، وتارة رابعة في موقف الحزن والإحساس بالفقد ، وتارة خامسة ترد في الطيـــف ، وسنفصـــــل الحديث في كـــل موقف من هذه المـواقـف بادئين بالذكـــرى في مـــــــوقـف الأطـــلال .

● الذكرى في موقف الأطلال :

تعد الأطلال من أقوى المثيرات للذكـــرى في نفس الشـــاعر الجاهلي وأعظمها تأثيرا عليـه وتكمـن قوة تأثيرها على نفـــسه في كونها كانت فـي يوم ما تحتضـــن ذكرياته مع أحبتـــــه ، وكونها لها القدرة المذهلة على إيقاظ هذه الذكريات بعد أن كانت هاجعة في ذاكرتـــــــــه ، وقد طواها الزمن ، وإذا بها تنبعث من جديد وإذا بالشـــاعر يعيش أيامها ويستغرق في التمتع بـها .

والأطلال بالنسبة للشاعر الجاهلـي هي ديار الحبيبة وديار الذكريات وهي قطـعة من ماضـيه العزيز الذي يثير في نفسه الشوق والحنين(١) وهي أيضا جزء مـــــن حياتــه ، وهو حيـــن يقف عندها يستحضر ذكرياته ويسترجع أيام صباه ، فتثير فـــي نفسه ألوانا من الأسى والشـجو والحنين،فيندفع في مناجاة هذه الأطلال ومخاطبتها ووصـــف آثارها وتصور ما كان فيهـــا ، فهو في الحقيقة يعبر عن إحساسات صادقة وعواطـــف صحيحة تملأ شعاب نفسه، والأطـــلال بالنسبة إليه تمثل الوطن المهجـــور والأهل والصحب والأحبة... بل هي حياة عاشـــهـــــــــا

وذكريات عزيزة عليه ... أن الشـــــاعر حين يقف في هذه الأطلال المهجورة تفيض نفســـه بشتى العواطف ويمتلأ صـــدره بخلجات من المشاعر المبهمة وتغرورق عيناه بالدمـــــوع ، لمـــا تثيره من ذكريـات(٢))فكل شيء في هذه الأطلال يذكره بماضـيه ، بذكريـاته مـــع الحبيبة و الأهل و الأصحاب و الندمان ،((فالأرض تذكر بهم ، وحطـوبـات الولائد وآيـــات الدعـــس تستثير صورهم ، وبقايا النؤي المتهدم هي التي تحمل ماضيهم إلى هذا الحاضـــر وتبثه فيه)) ،(٣) وخلف كل شيء من هذه الأشياء حكاية للشاعر وذكرى .

وتتلون هذه الذكريات التي تثيرها الأطلال ، فمنها ما يتعلق بذكريات الشـــاعر مع حبيبتـه، وهو الغالب في الشعر الجاهلي كقول امرئ القيس في مطلع معلقته ، إذ يقـــــول:(٤)

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بســـقط اللوى بين الدخـــول فحومـــــل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نســـجتها مـــن جـــنوب وشـــــمأل

فالشاعر يستوقف صاحبيه ويدعوهما للبكاء معه على المحبوبة (٥) التي رحلت وخلّفـــــت وراءهـــا قلبـا حزينا تعتصره الذكريات الأليمة ، ومما يلاحظ على الشاعر وهو يقف علـــــى أطـــــلال محبوبته ، انـه يوجز في تجربته إيجازا شديدا إذ لايفصح عن طبيعـــــــــــة هذه الذكريـــــــــــات ، ولايطلعنـــا على تفاصـــيل هذه الذكريات التي جمعته مع محبوبته فـي أيامه السالفة ، واكتفـى بذكر الأماكن التي هي بطبيعة الحال قطعة من نفسه ، ففيها عاش أيامـه الجميلة ، وفوق رمالهـا خلف قلبـــــه وشبابه ، فهي أماكـن غالية عليه ، حبيبة إلى نفســـه ، وهو لذلك وفـــيّ لهـــا ، متشبث بها ،(٦) ومن هنا نراه يعمد عمدا إلى تحديدها تحديدا دقيقـا ، ووصفها وصفا يشـــــي ببقائها ، ولعل السبب فـي هـذا الإيجاز يعود إلى حالته النفسيـــة المتأزمة وهو يسجل آهاتـــــه على مـــــاض غابر، رحل بأيامه ليظل ســاكنـا فـــــي وجدانه بما احتفظ به مـــــن ذكريات (٧) التي لاتسمح لـــه بسرد هـذه الذكريـــــــات والاسترسال فـي تفاصيلها ، وقد يكـون هنالك سبب آخر وراء هـــــذا الإيجاز الشـــديـد الذي يعمد إليه الشاعر وهـــو حالـــــة النسيان – بسبب تقادم العهد بينه وبيـــن محبوبتـــه - التي ألمت بالشاعر وما تمخض عنها مـــن ضعف أصا ب ذاكرته مما لم يعد معـــــه تذكـر شيئا من تفاصـــيل هذه الذكريات . ولنتأمـــل ذكريـــات الحارث بن حلزة اليشكري وهـــــو يقف على أطلال محبوبتـــه أسماء في معلقتـــــه ، إذ يقول :(٨)

آذنتنا ببينهـــــا أسمـــــاء رب ثاو يمل منه الثـواء

بعد عهد لنا ببرقة شـــما ء فأدنى ديارها الخلصـاء

فالمحياة فالصـــفاح فأعنا ق فتاق فعاذب فالوفـاء

فرياض القطا فأودية الشر بب فالشعبتان فالإبـلاء

لا أرى من عهدت فيها فابكي اليوم دلها وما يحـير البكـاء

يقف الشاعر جزعا مهموما وهو يستحضر شريط ذكرياته ، إذ يقفز في ذاكرته ذلك الخبـر المؤلم الذي تلقاه بحزن وجزع بالغين وهو إعلان ساعة الرحيل والفراق ، ثم يبدأ بذكـــر المواضـــع العديدة التي شهدت ذكرياته معها ، موضعا موضعا وهو أيضا كامر ئ القيـس لايفصح عن هذه الذكريات ولايذكر تفاصيلها ، ويبدو انه يستعيض عنها بهذا التكثيـــف والتفصيل بذكر هـــذه المواضع ، لان في كل موضع من هذه المواضع له حكاية وذكـرى ،((فحين نتأمل أبيات الشاعر ، نجد فيها إصرار على ذكر الأماكن التي تمثل موطـــن الذكريات ومراتع الهـــوى ، ويتجول بنا الشاعر صاعدا إلى الهضاب تارة ، ونازلا بنا فجـأة إلى الشعاب والأودية ، ويبدو أن الشعراء في مثل هذا الموقف لايسعون إلى تكثيف الصـــور الشعرية من خلال الوقوف علـــى تحديد المواضع والأماكن ، بقدر ما يهدفون إلى إيهـــام القارئ أو السامع بصدق تجاربهم وواقعيتها ، ومن ثمة يخبرنا الشاعر بأنه كان سخيـا فـي سكـب الدموع مدرارا هياما واشتياقا إلى الحبيبـة التي مثلت بالأمس فيضـا من الحيـاة السـعيدة ، والذكريات العذبة ، وهي اليوم تمثل فيضا إلهاميا.))(٩)

وأهم ما يلفت نظرنا هنا أن الشاعر ((لاتستوقفه الديار الدارسة غير أن ما يستوقفه حقـا هـو ذكرياته من خلال تلك الأماكن ، فهو يشير إلى المواضع التي تحمل في طياتها دلالـة الذكـرى دون أن يطلعنا على ما أصابها من دمار وتخريب ، عساه يحتفظ بشيء أثمن وهـو أن يظـل جمال الذكرى حيا في نفسه ، متحركا في وجدانه ، دون أن يشوه صورتـه ، أو ينقـص مـن جماليته شيء .)) (١٠) كما يلفت نظرنا أيضا هذا التكثيـف فـي هـذه الفـاءات العاطفة التي يحـاول الشاعر أن يربط بها هذه الأماكن فهي تمثـل لفتة نفسيـة بارعة يهـدف الشاعر من ورائها إلى الفاتنا إلى أن هذه الأماكن – برغـم تباعدها في الواقـع – متقاربة في نفسه ، لأنها تضـم بيـن دفتيها مسرح الشاعر العاطفـي الذي لاتزال ذكرياتـه تعيش فوقه حية ، بل دافقة بالحياة ، فهـي جميعا يضمها قلبه ويتسـع لها ، وكأنما قد تلاشـت بينها المـسافات ، وذابت الحواجز ، واختفـت الحدود. (١١)

ومنها ما يتعلق بذكريات الشاعر مع أهله وقومه ، وهي قليلة إذا ما قورنت بذكريات الشاعر مع محبوبته ، ويتسم هذا اللون من الذكريات ، بأنه تمتزج فيه ذكريات الشاعر بالحسرة والتوجع على أهله وقومه الذين هلكوا ومضوا لسبيلهم ، وهو قريب من الرثاء وان الشاعر فيه يعتصره إحساس مرير بالفقد ، ويمكن أن نلمس مثل هذه الذكريات واضحة في أطلال عبيد بن الأبرص ، إذ ينفرد هذا الشاعر عن غيره من الشعراء الجاهليين بهذا اللون من الذكريات ، فهو يقف على الأطلال ، لايبكي الحبيبة الراحلة مثلما يفعل غيره من الشعراء الجاهليين ، بل يبكي أهله وإخوته وأبناء عمومته وقومه ، بقلب تعتصره الحسرات عليهم ، ويقتله إحساس مرير بالفقد لرحيلهم ، مما يكشف عن قوة آصرة القربى ومتانتها في نفسه ، يقول عبيد بن الأبرص : (١٢)

أمن منزل عاف ومن رسم أطلال ... بكيت وهل يبكي من الشوق أمثالي
ديارهم إذ هم جميعا فأصبحت ... بسابس إلا الوحش في البلد الخالي
قليلا بها الأصوات إلا عوازفا ... عرارا زمارا من غياهب آجال
فان تك غبراء الخبيبة أصبحت ... خلت منهم واستبدلت غير أبدال
بما قد أرى الحي الجميع بغبطة ... بها والليالي لاتدوم على حال
أبعد بني عمي ورهطي وإخوتي ... أرجي ليان العيش ضلا بتضلال
فلست وان أضحوا مضوا لسبيلهم ... بناسيهم طول الحياة ولا سالي

وبالرغم من أن الشاعر في هذه الوقفة الطللية وقد تملّكه الحزن واعتصر قلبه الأسى والإحساس بالفقد غير أنه يستنكر على نفسه – وقد هاجته المنازل العافية والأطلال الدارسة - البكاء من شدة الشوق على الأهل والأحبة الذين طواهم الزمن ، ولايرتضي لنفسه مثل هذه الحال التي تظهره بمظهر الإنسان الضعيف المستسلم للقدر ، وهو الرجل الصلب والجلد في المواقف الصعبة .

ومنها مايتعلق بذكريات الشاعر مع أصحابه وندمائه ، فهذا حسان بن ثابت يقف على الأطلال فتثير في نفسه ذكرياته التي قضاها في أكناف ملوك آل جفنة وبين ظهرانيهم ، وما يمكن أن نلاحظه في هذا النص أن الشاعر يوجز إيجازا شديدا ، فلايفصح عن طبيعة تجاربه مع ملوك آل جفنة ويحجم عن ذكر تفاصيلها ، شانه في ذلك شان بقية الشعراء الذين يقفون على إطلال أحبتهم فلا يفصحون عن طبيعة تجاربهم ، ولا يذكرون تفاصيلها ، كما تقدم الحديث عن ذلك ، يقول حسان بن ثابت : (١٣)

أسالت رسم الدار أم لم تسـأل | بين الجوابي فالبضيع فحومـل
فالمرج مرج الصفّرين فجاسم | فديار سلمى درسا لم تحـلل
دمن تعاقبها الريـاح دوارس | والمدجنات من السماك الأعزل
دار لقوم قد أراهم مـرة | فوق الأعزة عزهـم أم ينقـل
لله در عصـابة نادمتهـم | يوما بجلّق في الزمـان الأول
..... | .....
فلبثت أزمانا طوالا فيهـم | ثم ادكرت كأننـي لم أفعـل

● الذكرى في موقف الرحيل :

ينبغي علينا قبل البدء بدراسة هذا اللون من الذكريات أن ننوه إلى أن هذا الموقـف هـو امتـداد لموقف الشاعر في الأطلال ، وبمعنى آخر أن ذكرياته في موقف الرحيـل هـي استرسال لذكرياته في الأطلال وجزء لايتجزأ منها ، لكننا ارتأينا أن نفرد لهذا الموقف عنوانـا خاصا به وان نفصله عن موقف الأطلال وان كان امتدادا له ، وذلك لغرض تسهيل الدراسة من جانب ، وملاحظتنـا أن بعض الشعراء(١٤) يتجاوزون مـوقف الإطـلال ويـبدؤون بموقـف الرحيل بالصورة التي تنبئ بانفصال هذا الموقف عن موقف الأطلال ، مما يتيح لنا أن نعـده مسوغا لان نفرد له عنوانـا ودراسة خاصة به من جانب آخر . ويعد موقف الرحيـل من المواقف المؤثرة في نفـوس الشعراء الجاهليين ، إذ أن له وقعا شديـدا على نفوسهم ، ممـا يبقي بصماته وآثاره مطبوعة ، بـل محفورة على صفحات ذاكرتهم ، والتي لم يستطع الزمـن بما له من سطوة كبيرة عليهـم ، أن يمحو ذكريات هذا اليوم ، أو هـذا الموقف من ذاكرتهـم ، فالشاعر في هذا الموقف حين يقـف يستحضر ذكريات حبـه ، يتأنى عند هذه اللحظـات القاسية من هذه الذكريات ، لحظات الـوداع ، ثم ينطلق يعرض لمـا كان من رحيل الأحبة ويتمثل هذه اللمحات من هذا الرحيل ويتابـع الركب يغور معـه وينجد ، ويصعد ويهبط حتـى ينتهي به شريط ذكرياتـه إلى اسـتقرار هذا الـركـب واطمئنانه في موضع من المواضـع التي احتفظت بها ذاكرته على تقادم السنين والأيام .(١٥)

وتختلف ذكريات الشعراء في هذا الموقف من حيث إيجازها أو متابعة تفاصـيلها ، إذ يتوقف ذلك على قوة ذاكرة الشاعر ومدى احتفاظها بالتفاصيل المتعلقة بمثل هذا الموقف والتي تتوقـف بدورها على قوة وقع هذا الموقف على نفسه ، فامرؤ القيس لاتعنيه تفاصيل رحلـة

محبوبته بقدر مايعنيه موقف الرحيل نفسه الذي يتمثل بمشهد التحمل ووقع هذا المشـــــــــــهد المؤثرعلى نفســـــه ، والذي يبدو معه الشاعر مستغرقا في أجواء نفسية متأزمة لاتـــسمح لــه بملاحقة تفاصيل رحلـــــة محبوبته كما هو معروف عند كثير من الشعراء الجاهلييـــــن ، فهو يتمثل اثر ذلك اليوم الحزيـــن في نفسه ، فكأنه ناقف حنظل من شدة بكائه و حزنه على فـراق محبوبته ، إذ يقـــــــول :(١٦)

كأني غداة البين يوم ترحـــلوا لدى سمرات الحي ناقف حنظـل
وقوفا بها صحبي عليّ مطيّهم يقولون لاتهلك أسى وتجمـــــل
وان شفائي عبرة أن سفحتهـــا وهل عند رسم دارس من معول

ويبدو أن هذه التجربة المؤلمة ، أو قل هذا الموقف المؤلم والمؤثر في الوقت ذاته ، أثار في نفسه تجارب عاطفية قاسية ومواقف مؤلمة أخرى ، كتجربته مع أم الحويرث وتجربته الأخـرى مع جارتها أم الرباب ، التين عمقتا في نفسه الإحساس الشديد بالألم واللتين وسعتا من جـــروح التجربة السابقة وذلك من خلال ما أفصحت عنه دموعه التي تجاوزت خديه إلى محمله ، يقـول الشاعر : (١٧)

كدأبك من أم الحويرث قبلهـــــا وجارتهـــــا أم الرباب بمأســـل
ففاضت دموع العين مني صبابــة على النحر حتى بل دمعي محملــي

أما طرفة بن العبد ، فلا يبدو أن مشهد الرحيل قد أثار كوامن نفسه ، وحّرك عواطفه وأيقـظ شجونه و ذكرياته مع محبوبته خولة ، إذ يقف على أطلالها ، فهو لم يحدثنا عن اثر هذا الموقف في نفسه ، واكتفى بوصف المركب الذي يحمل محبوبته وتشبيهه بالسفينة العظيمة ، التي تمـيل تارة وتعتدل تارة أخرى ، وعلى هذا نستطيع القول أن الشاعر لم يرعه موقف الرحيل نفســه ، وما ينطوي عليه من حزن ووجد ، بل راعه الشكل الخارجي للهودج الذي حملت فيه محبوبته ، لذلك راح يصفه بالوصف المتقدم ، ونستطيع أن نقول أكثر من ذلك ، وهو أن الشاعر لم ينفعـل بموقف الرحيل الذي يعنى ما يعنى بالنسبة للمحب ، بقدر انفعاله بالمنظر الخارجي للإبل وهـي تحمل هذه الهوادج ، مما يعني أن استجابته في هذا الموقف كانت استجابة فنية أكثر منهـــــا عاطفية ، لذلك لم نلمس الأثر النفسي في هذا الموقف الذى يتطلب من الشاعر فيه أن يعيـــش وضعا نفسيا خاصا ، يستحضر فيه ماضيه ، ويلم شتات ذكرياته التي قضاها مع أحبته ، بالقـدر الذي لمسناه في هذا الوصف الذي استغرق طاقة الشاعر بحيث غطى على البوح بذكرياتـــــه والتنفيس عن عواطفه ، إذ يقول : (١٨)

كأن حدوج المالكيـــــة غدوة خلايا سفين بالنواصـــف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامـن يجور بها الملاح طورا ويهتدي
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليـــد

ونمضى مع بشر بن أبي خازم نتأمل ذكرياته في موقف الرحيل ، ونتأمل أثر هذا الموقـف ووقعه على نفسه ، فبعد أن يحدثنا عن رحيل أحبته ، وان قلبه أصبح رهين هذه الظعـــائن ، إذ يقول :(١٩)

ألا بان الخليط ولم يـــزاروا وقلبك في الظعائن مســـتعار
أسائل ، صاحبي ولقد أرانـي بصيرا بالظعائن حيث صاروا

يطلق العنان لمخيلته برصد حركة هذه الظعائن وملاحقتها ومتابعتها وهي تتنقل من موضـع إلى آخر نهارا وليلا بعدسة الخيال ، وانه قد تجشم العناء والجهد في هذه المتابعة ، إذ يقـــول :

تؤم بها الحداة ميـــاه نخـــل وفيها عن أبانين ازورار
أحاذر أن تبين بنو عقيـــــل بجارتنا ، فقد حق الحذار
فلأيا ما قصرت الطرف عنهم بقانية ، وقد تلع النهـــار
بليل ما أتيـــن علـــى أروم وشابة عن شمائلها تعـار
أراهم كلما بانـوا تـــــولوا برهن منك ليس له حوار

والواقع أن هذه ((النقلة الخيالية مع الأحبة لاتعبر عن هذا الفيض النفســـي الذي يدفـــع بالشـاعـر إلى هذه المصاحبة الطويلة البعيدة على حين كان لايزال في مكانه من الأطـــلال يحدس ويتـفرس وفي مكانه من صاحبه يلتفت إليه ويتكئ عليه ، وإنما تعبر كذلك عن هـــذا الصنيع الفني فـــي التمثل والتخيل ، في استحضـار الصور من نحو وفي عرضـــها مـن نحـــو آخر .)) (٢٠)

ولا يقف الشاعر عند هذا الحد من الإفصاح عن ذكرياته ، بل يسترسل في تفاصيلها ، تسعفه في ذلك مخيلة خصبة ، وذاكرة قوية لم ينل منها الزمن ، فيصف جمال النسوة االلاتي تحملنهـا هـذه الظعائن ، ثم يلتفت إلى إحداهن فيخصها بالوصف مظهرا جمالهـا وترفها ، إذ يقـول :

كأن ظباء أسنمة عليهـــــا كوانس قالصا عنها المغـــــار

يفلجن الشفاه عن أقحوان جلاها غب سارية قطـــــــار
وفي الإظعان آنسة لعـــوب تيمم أهلهـــا بلدا فســـــــاروا
من اللاتي غذين بغير بـؤس منازلها القصـيبـــــة والأوار
غذاها قارص يجري عليهـــا ومحض حين تنبعث العشـــار
نبيلة موضع الحجلين خـــود وفي الكشحين والبطن اضطمار
ثقال كلما رامت قيـــامـــــا وفيها حين تنبعث انبهـــــــار

ثم يلتفت إلى نفسه ، فيحدثنا عن الأثر النفسي والفراغ العاطفي الذي خلفه في نفسه رحيـــل أحبتـه عنه ، فبدا وقد جفاه النوم ، واستبد به الأرق ، مخمورا من لوعة الفراق ووجده ، فكـــأن الخمـرة قد دبت دبيبا في مفاصله ، لايلوي على شيء سوى انه يرقب النجوم متأملا أن ينكشف هذا الليل الطويل عن صبح يزيح عن كاهله هذه الهموم والأحزان ، ويتجدد فيه الأمل ، وتنبعث فيه الحياة ، إذ يقول :

فبت مسهدا أرقـــا كأنـــــي تمشّت في مفاصلي العقـــار
أراقب في السماء بنات نعش وقد دارت كما عطف الصوار
وعاندت الثريا بعد هـــــدء معاندة لها العيّوق جـــــــار

وبعد أن يتمالك نفسه ويفوق من هذه الصدمة وهذا الجرح الذي خلفه يوم الفراق فـي نفسه ، يقر بالأمر الواقع – واقع الرحيل- وفي محاولة منه لاستعادة توازنه النفسي ورأب الصـــــدع النفسي الذي خلفه هذا الفراق ، يعمد الشاعر إلى سرد بعض ذكرياته وأيام الوصل والأنـــــس التـــي جمعته مع النسوة العقيليات والتي يصفها بأنها أيام قصار لما فيها من متعة وسعـــــادة ، ويستبد بـــه التيه والخيلاء فيذكر بعض مغامراته العاطفية معهن ، في محاولة لإثبات ذاته التي يستشعر فيها الانكسار اثر تعرضها لهذا الموقف المؤلم ، إذ يقول :

فان تكن العقيليات شطـــــت بهنّ وبالرهينات الديـــــار
فقد كانت لنا ولهن حتـــــــى زوتنا الحرب أيام قصـــــار
ليالي لاأطاوع من نهانـــــي ويضفو تحت كعبـــي الإزار
فاعصي عاذلي وأصيب لهـوا وأوذي في الزيارة من يغـار

ويبدو أن الخوض في هذه المغامرات لم تسعفه ، ولم تطفئ نار الوجد التي اكتوى بهـــا ، إذ أخفقت في تخفيف وطأة الفراق على نفسه ، فراح يطلق هذه الصرخة التي انبثقت من أعماقـه ، والتي عبرت عن عمق معاناته النفسية وديمومتها ، إذ يقول :

فيا للنفس للرجل المعنـــــــى طوال الدهر إذ طال الحصار

وتكشف لفظة (الحصار) عن مدى ما يعانيه الشاعرمن ضيق نفسي خلفه مشـهد الفراق فـي نفسه ، هذا وتختزل هذه الصرخة وهذا الحصار كل ما انطوت عليه تجربته الشعرية من أبعـاد نفسية وفنية ، استطاع الشاعر التعبير عنها وتصويرها بمخيلة الفنان المبدع .

● الذكرى في تجربة الشيخوخة :

الشيخوخة في أبسط توصيف لها ، هي مرحلة من مراحل عمر الإنسان ، تتسـم بالضـعف والعجز ، إذ يبدو فيها الإنسان خائر القوى ، وغير قادر على الفعل ، ومن ثـــم غير قادر على تحقيق الذات ، ولهذا نجد الإنسان في هذه المرحلة ، يتشبث بالماضـــي ، الذي هو جزء مـــن حياته ، ويجتر ذكرياته ، ويستعرض سجل حياته ، ويصبح نهبا لأحلام اليقظة التي لايجـــــد غيرها ميدانا لتحقيق ذاته ، وتعويض ما فاته ، فنجده غالبا ما يشـــيد بالماضي وبما حققه في أيام شبابه ، ولهذا نراه دائما يبكي هذا الشباب الغارب ، الذي كـان فيه أشد قوة وقدرة علـــى الفعل . (٢١) وأهم ما يلاحظ في هذه المرحلة ، انصراف المـرأة عن الشاعر وإعراضها عنـه ، وسخريتها منه ، مما يحدث جرحا عميقا في نفسه ، الأمر الذي يؤلمه ، ويزيد في معاناتـــه ، ويعمق الشعور بالأسى والحزن في نفسه ، وذلك ما عبر عنه عدد من الشعراء ، يقـــــول زهير : (٢٢)

وقال العذارى إنما أنت عمنـــا وكان الشباب كالخليط نزايلـــه
فأصبحت ما يعرفن إلا خليقتي وإلا سواد الرأس والشيب شاملـه

ويقول الأسود بن يعفر : (٢٣)

لما رأت أن شيب المرء شامله بعد الشباب وكان الشيب مسؤوما
صدت وقالت أرى شيبا تفرعه أن الشباب الذي يعلو الجراثيمـــا

ويقول الأعشى : (٢٤)

وأنكرتني وما كان الذي نكـرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

ويقول عوف بن عطية : (٢٥)

وقالت كبيشة من جهلهـــا أشيبا قديما وحلما معـــــــارا
فما زادني الشيب إلا ندى إذ ا استروح المرضعات القتارا

وإحساس الشاعر بازدراء النساء له ، وعدم مقبوليته من قبلهن ، يســـــــلمه إلى لـــون مـــــن الشعور بالاغتراب عن ذاته ، وعن مجتمعه ، إذ يعيش وحيدا ، منقطعـــا عـــن الناس ، عاجزا عن تحقيق نفسه بينهم ومن خلالهم ، فلم يبق له ما يلوذ به ويتوســـــــل إليـه ســـوى عالـــم الأحلام والذكريات الذي يرتبط من خلاله بواقع غير الواقع الذي يعيش فيـــه وبمثل وقيـــم تختلف عن مثل وقيم هذا الواقع.(٢٦)

وعند تأمل ذكريات الشعراء الجاهليين وهم يخوضون تجربة الشيخوخة ، نجدها تنحـــــو منحيين : فالمنحى الأول ، يتخذ صورة ما يعرف بالفتوة التي كانت شائعة عندهم ، والتـــــي تتخـــذ مثالا يتوارد عليه أغلب الشعراء ، ويشمل ، النساء والخمر والميسر وركوب الخطـــر ، كالصيد في الأماكن التي يتحاماها الناس ، وقطع الصحارى المهلكة وما إلى ذالك ، غيـــر أن ما يختلف فيه شاعر عن شاعر آخر ، هو نمط الاهتمام بهذه التجربـــة أو تلك مـــن تجارب الفتوة ، فنراه يوجز أو يطيل في ذلك كله أو بعضه حسب ما تملي عليه أهـواؤه وميوله ، (٢٧) فالأعشى مثلا ، تستغرق الخمرة ووصف مجالسها وسقاتها وما تبعثه مـن حالة الانتشاء فـــي نفسه ، أغلب ذكرياته ، فهو يفصل فيها تفصيلا ينبئ عن شغفه بهـــا ، وحبه لها ، واهتمامـــه فيها ، في حين لاتشكل بقية التجارب الأخرى – باستثنـاء بعـــض تجاربه مع المرأة - مـــن اهتماماته وذكرياته إلا النزر القليل فنجده يوجز فيها إيجازا يكشف عن أن هذه التجـــــــارب لاتحظى باهتمامه إلا بالقدر الذي يحقق فيه ذاته ، ويســـتكمل فيه مقومات رجولته ، فالشاعـــر بعد أن يوجه خطابه إلى إحدى محبوباته ، يتحسر فيـــــه بمرارة وحزن بالغين ، على ما أحله الشيب في نفسه من هموم وأحزان ، وما تبعـــه مـــن تبدل حاله بعد تلك الأيام والليالي الجميلة والذكريات السعيدة التي قضاها بصحبة محبوبته ، وهو في عنفوان شبابه ، إذ يقول : (٢٨)

وان أخاك الذي تعلمـين لياليـــنا إذ نحـل الجـــــفارا
تبدل بعد الصبى حكمة وقنعه الشـــيب منـــه خمـــارا
أحـــل به الشـــيب أثقاله وما اعتره الشيب إلا اعتـرارا
فإما ترينـــي علـــى الـــة قليت الصبى وهجرت التجارا

فهو يحاول أن يستحضر ماضيه الذي ينطوي على ذكرياته السعيدة ، ويعيش أحلام اليقظة التي تبعث الأمل والحياة في نفسه ، وتجعله يمني النفس بأنه أمضى عزيمة على الفعل ، وأكثر قدرة على إثبات الذات ، إذ يقول :

فقد أخرج الكاعب المسترا ... ة من خدرها وأشيع القمـــارا
وذات نواف كلون الفصـــو ... ص باكرتـها فادمجت ابتكارا
غدوت عليها قبيل الشـــرو ... ق إما نقالا واماا غتمـــارا
يعاصي العواذل طلق اليدين ... يروي العفاة ويرخـي الازارا
فلم ينطق الديك حتى مـــلأ ... ت كوب الرباب له فاسـتدارا
إذا انكب أزهر بين السقاة ... تراموا به غربا أو نضـــارا

وواضح أن ذكرياته في الخمرة قد استغرقت معظم النص ، في حين أن ذكـرياتـــــــــه الأخرى لم تستغرق إلا بيتا واحدا فقط .

أما الأسود بن يعفر ، فبعد أن يوجه خطابه إلى المرأة ، وهو يخوض تجربة الشيخوخة معلنا تذمره واستياءه من الوضع المزري الذي هو فيه ، من فقدان البصر ، ونحول البـدن ، ومـــــا اعتراه من تحول في نفسيته ، تمثل في عصيانه ورفضه الانصياع إلى نداء الهـوى وغوايـــة أصحاب الصبابة ، كما تمثل في رضوخه للأصوات التي تعذله وتحاول أن تكبح جمـــــــاح صبوته ، إذ يقول :(٢٩)

إما تريـنـــي قد بليت وغاضنـــــي ... ما نيل من بصري ومن أجلادي
وعصيت أصحاب الصبابة والصبـا ... وأطعت عاذلتي ولان قيـــادي

يحاول أن يستحضر ذكرياته في سني شبابه وما انطوت عليه من متع متنوعـــة ظـــلت عالقة في ذاكرته ، إذ يبدؤها بمتعة الخمر ، آخذا بوصفها ووصف ساقيها إذ يقـــــــــول :

ولقد أروح على التـجار مرجـــلا ... مذلا بمالـــي لينـا أجيـــادي
ولقد لهوت وللشـــباب لـــذاذة ... بسلافة مزجت بمـــاء غوادي
من خمر ذي نطف أغن منطّـــق ... وافى بها لدراهم الأســـجاد
يسعى بها ذو تومتين مشـــــمر ... قنأت أناملـه من الفرصـــــاد

ثم يسترسل فينتقل في ذكرياته ، إلى وصف النساء ، فيصف جمالهن ، وما له مـن ســحر وتأثير على قلوب الناظرين ، ثم يلتفت إلى جمال منطقهن ، وحسن حديثهـــن ، إذ يقـــول :

والبيض تمشـــي كالبدور وكالدمـــى ونواعم يمشـــين بالأرفـــــاد
والبيض يرميـــن القلوب كأنهـــا أدحي بين صريمـــة وجمـــاد
ينطقن معروفـــا وهن نواعـــــم بيض الوجوه رقيقـــة الأكباد
ينطقن مخفوض الحديث تهامســـا فبلغن ما حاولن غير تنـــادي

وينتهي الشاعر بذكرياته إلى تجاربه في الصيد وركوب المخاطر ، بعد أن اطمأن إلـــى أن هذه الذكريات قد أعادت إليه توازنه النفسي وحققت ما يصبو إليه وهو يخوض تجربـــــــة الشيخوخة وما يصاحبها من معاناة نفسية مريرة من اطمئنان نفسي هو أحوج إليه في هـــــذه المرحلة من عمره ، ومن ثقة بالنفس وقدرة على تحقيق ذاته ، مما يعينه على مواصـــــــلة الحياة ، وتحمل أعبائها ، وكسر طوق العزلة والاغتراب الذي تفرضه عليه هذه المرحلـــة ، إذ يقول :

ولقد غدوت لعـــازب متنـــاذر أحوى المـــذانب مؤنـــق الرواد
جادت سواريـــــه وآزر نبتـــــه نفأ من الصـــــفراء والزبـــاد
....
بمشـــمر عند جهـيـــز شـــده قيد الأوابد والرهـــان جـــواد

أما المنحى الثاني ، فانه يتخذ صورة المغامرات العاطفية والحكايات الغرامية ، إذ يتعـرض الشاعر الجاهلي في بعض الأحيان وهو يقيم حوارا جدليا مع المرأة التي غالبا ما تكون إمـــــا حبيبته ، أو زوجته إلى سخرية هذه المرأة واستهزائها بكبره وعجزه الذين يمثل الشيب أهـــــم علامة دالة عليهما ، هذه السخرية التي يعدها الشاعر الجاهلي طعنا برجولته ومساسا بكرامتـه ، الأمر الذي يرفضه بقوة وعنف لما عرف عنه من إباء وعزة نفس وفتوة ، وفي محاولة منـه لإثبات رجولته ودحض افتراءات هذه المرأة وادعاءاتها ، يلجأ إلى الماضي ليجعل منه متكـــأ ونقطة انطلاق للرد عليها ، إذ يحاول أن يستعرض كل ما أسعفته به ذاكرته وما اتسع له خيالـه الشعري ، من ذكريات يصوغها الشاعر بصورة مغامرات عاطفية ، وحكايات غراميـــــة ، إذ يوشّحها بوشاح الفن ، ويهيئ لها من عناصر الفن القصصي من حوار وشخوص وحوادث ، مـا يخيّل للمتلقي ويوهمه بواقعيتها ، ويمكن أن نتأمل ذلك في الموقف الذي تعرض له امرؤ القيـس في جدله مع بسباسة ، إذ حاولت أن تطعنه في رجولته ، وان تمس كبرياءه ، الأمر الذي جعلـه يرد عليها ردا عنيفا ، متهما إياها بالكذب ، إذ يقول : (٣٠)

ألا زعمت بسباســـة اليوم إنني كبرت وألا يحسن اللهو أمثالـــي

كذبت ، لقد أصبي على المرء عرسه وأمنع عرسي أن يزن به الخالـي

ومن ثم راح يستعرض ذكرياته التي صاغها بصورة مغامرات عاطفية ، وحكايات غراميـة ، في محاولة منه لإثبات وجوده ورجولته ، إذ يقول :

ويا رب يوم قد لهوت وليلـــــة بآنسة كأنهـــا خط تمثـــــــال

....

تنوّرتها من أذرعـــات وأهلهـــا بيثرب أدنى دارها نظر عـــــال

نظرت إليها والنجـــوم كأنهـــا مصابيح رهبان تشب لقفّـــــــال

سموت إليها بعد ما نـــام أهلهـــا سمو حباب الماء حالا على حـــال

فقالت سباك الله انك فاضـــحـــي ألست ترى السمار والناس أحوالـي

فقلت يمين الله أبرح قاعـــــــدا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالـي

حلفت لها بالله حلفة فاجـــــــر لناموا فما أن من حديث ولا صـال

فلما تنازعنا الحديث وأسمحـــت هصرت بغصن ذي شماريخ ميـال

وصرنا إلى الحسنى ورق كلامـــنا ورضت فذلت صـــعبة أي إذلال

فأصبحت معشوقا وأصبح بعلهـــا عليه القتام سيئ الظن والبـــــال

يغط غطيط البكر شد خناقـــــــه ليقتلني والمرء ليس بقتـــــــال

أيقتلني والمشرفي مضاجعـــــي ومسنونة زرق كأنياب أغـــوال

وليس بذي رمح فيطعننـــي بـــــه وليس بذي سيف وليس بنبـــــال

أيقتلني وقد شغفت فؤادهـــــــا كما شغف المهنوءة الطالـــــــي

وقد علمت سلمى وان كان بعلهـــا بأن الفتى يهذي وليس بفعـــــال

كما يمكننا أن نتأمل ذلك أيضا في الموقف الذي تعرض له عبيد بن الأبرص في جدله مـــع زوجه ، التي حاولت أن تمس كبرياءه ، وان تطعنه في صميم رجولته وذلك من خلال وصمـــه بالضعف البدني والضعف الاجتماعي - أن صح التعبير – والعجز وعدم القدرة على مواتـــاة النساء ، إذ يقول : (٣١)

زعمت أنني كبـرت وأننـــي قل مالي وضن عني الموالـي

وصحا باطلي وأصبحت كهلا لا يواتي أمثالها أمثالـــــي

لذلك نراه يستعين بذكرياته التي تتخذ صورة المغامرات العاطفية ، والحكايات الغرامية التي يوشّحها بوشاح الفن ، إذ يضفي عليها لونا من الحوار البسيط مما يوهم بواقعيتها ، للرد على زوجه وإفحامها ، ومن ثم استعادة توازنه ، واثبات رجولته ، إذ يقول :

أن رأتني تغير اللون مني	وعلا الشيب مفرقي وقذالي
فبما أدخل الخباء على مه	ضومة الكشح طفلة كالغزال
فتعاطيت جيدها ثم مالت	ميلان الكثيب بين الرمال
ثم قالت فدى لنفسك نفسي	وفداء لمال أهلك مالي
.....	.....
ذاك عيش رضيته وتولى	كل عيش مصيره لهبال

● الذكرى في موقف الحزن والإحساس بالفقد :

يقع الشاعر الجاهلي في أحيان كثيرة تحت وطأة الشعور بالحزن ، والإحساس بالفقد ، إذ أن الواقع الذي يعيشه هذا الشاعر يرشح إلى تفاقم مثل هذه الأحاسيس ، فهو واقع يحكمه مبدأ القوة وقانون الحرب ، وتعبث بمقدراته البشرية والاقتصادية الصراعات والحروب مما ينتج عنها المزيد من القتلى والجرحى والأسرى ، الأمر الذي يثقل كاهل الإنسان الجاهلي ، ويجعله أسيرا للحزن ، والإحساس بالفقد ، لذلك يلجأ الشاعر إلى الذكرى كوسيلة نفسية فاعلة للتخفيف من وطأة هذه الأحاسيس على نفسه .

وتتلون ذكريات الشعراء الجاهليين في مواقف الحزن هذه ، فعبيد بن الأبرص يدفعه الحزن والإحساس بالفقد الشديدين إلى تذكر أهله وقومه ، فيتذكر ما كانوا يتمتعون به من خصال رفيعة ، ومثل إنسانية سامية ، ومنزلة اجتماعية مرموقة ، وفروسية مشهودة ، فيستحيل هذا الحزن الشديد إلى بكاء حار لاتجف مدامعه ، إذ يقول : (٣٢)

تذكرت أهلي الصالحين بملحوب	فقلبي عليهم هالك جد مغلوب
تذكرت أهل الخير والباع والندى	وأهل عتاق الجرد والبر والطيب
تذكرتهم ما إن تجف مدامعي	كأن جدول يسقي مزارع مخروب

ثم يحاول الشاعر أن يتجاوز هذا الموقف المؤثر ، وان يخفف من وطأة هذه الأحاسيس على نفسه ، فيلجأ إلى الاستعانة بذكرياته التي تدور حول معاني (الفتوة) التي يتحسر على ذهابها بذهاب قومه ، وما كانوا يتمتعون به من عز ووجاهة وسلطان ، إذ يقول :

وبيت يفوح المسك من حجراته ... تسدّيته من بين سر ومخطوب
ومسمعة قد أصحل الشرب صوتها ... تأوّى إلى أوتار أجوف محنوب
شهدت بفتيان كرام عليهم ... حباء لمن ينتابهم غير محجوب
وخرق من الفتيان أكرم مصدقا ... من السيف قد آخيت ليس بمذروب
فأصبح مني كل ذلك قد مضى ... فأي فتى في الناس ليس بمكذوب

ومما يمكن أن نستشفه من هذا الربط الذي عمد إليه الشاعر بين إبراز مايتمتع به قومه من عز ومجد وسؤدد وشرف رفيع ، وبين ذكرياته التي تدور حول معاني الفتوة ، هو أن الشاعر يرى أن ما كان يتمتع به من الفتوة في أيام شبابه ، التي تعني فيما تعني ، القدرة على الفعل ، والتي يفتخر بها ، مستمدة مما كان عليه قومه من مكانة اجتماعية رفيعة ومن مجد مؤثّل ، ومن ثم كان يرى أن وجوده مستمد من وجودهم ، من هنا نجد أن هذا الإحساس بالفقد لدى الشاعر قد ولد عنده فراغا نفسيا لايستطيع املاءه إلا بالذكريات التي تعيد له توازنه النفسي الذي فقده بضغط هذا الإحساس بالفقد ، وتبعث في نفسه الأمل والرغبة في الحياة من خلال التمتع بهذه الذكريات والتلذذ بسردها .

أما النابغة الجعدي ، فيلم به الحزن الشديد فيدفعه إلى تصفح ذاكرته ، لعله يجد فيها شيئا يخفف به من وطأة هذا الحزن الشديد الذي يعتصر قلبه ، فيبدو أن ذاكرته لم تزل تحتفظ بذكرياته التي جمعته مع أصدقائه وأصحابه ، من الكهول والشبان الذين نادمهم في كنف أحد ملوك المناذرة ، وهو المنذر بن محرق (٣٣) ، فيصف ما كان يدور بينهم من متع الحياة في أروقة قصور هؤلاء الملوك ومن مظاهر الترف واللهو التي تتمثل باحتساء الخمرة العراقية الفاخرة ، وتناول الطعام المشوي ، ولبس الثياب اليمنية المطرزة الفاخرة ، والتعطر بعطور دارين الشديدة الرائحة ، إذ يقول : (٣٤)

فأصبح قلبي قد صحا غير أنه ... وكل امرئ لاق من الدهر قنطرا
تذكر شيئا قد مضى لسبيله ... ومن حاجة المحزون أن يتذكرا
نداماي عند المنذر بن محرق ... أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مقفرا
كهولا وشبانا كأن وجوههم ... دنانير مما شيف في أرض قيصرا

وما زلت أسعى بين بـاب ودارة بنجران حتى خفت أن أتنصّـــــرا
إذا ملك من آل جفنــة خالـــــه وأعمامه من آل امرئ القيس أزهرا
يرد علينا كأســـه وشـــــواءه مناصـــفة والشرعبـــــّي المحبّـرا
وراحا عراقيــا وريطا يمانيـــا ومعتبطا من مســـك دارين أذفـــرا
أولئك أخدانـــي مضوا لســـبيلهم وأصبحت أرجو بعدهم أن أعمـــرا
وما عمـــري إلا كدعـــوة فارط دعـــا راعيـــا ثم اســـتمر فأدبـــرا

ومما يلاحظ هنا أن ذكريات الشاعر يشوبها إحساس مرير بالتحسر ، مما جعله يتمنى بعدهم عمرا مديدا ، ولكن هيهات منه ذلك ، لأنه يدرك انه سيلحق بهم طال الزمن أم قصر ، وهو مـا أشار إليه في البيت الأخير .

- الذكرى في الطيف :

لاتقتصر ذكريات الشعراء وتجاربهم التي جمعتهم مع محبوباتهم ، وأحبتهم مـن الأهـــــل والأصدقاء والأصحاب والندماء ، على ما تقدم من مواقف وتجارب ، بـــل امتدت لتشـــمل تجاربهم في الطيف ، لاسيما ذكرياتهم وتجاربهم مع المرأة (الحبيبـة) ، التي تشكل مع الشاعر فيها ثنائيا فاعلا يسهم في تشكيل الأبعاد النفسية والجمـالية للتجربة الشعرية ، (٣٥) وتتبايـــن ذكريات الشعراء في تجربة الطيف ، من حيـــث الإيجاز والتفصيل ، فمنهم من يوجـــز في ذكرياته ، ومنهم من يطيل فيها ، ويبـدو أن السبب يكمن ، في التجربة الشعرية ذاتهـــا ومـــا تتطلبـــه مقتضياتها ودواعيها الانفعاليـــة من إيجاز في هذه التجربة ، أو إطالة في تلك ، هـذا من جانـب ، ومدى قدرة ذاكـرة الشاعر على الاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من التفاصـــــــيل والجزئيات ، التـــي تسعفه فـــي لملمة شتات هذه التجربة وتنسيقها ومن ثم عرضها بالصورة التي تلبـــي مـــا يرغـب في تحقيقه نفسيا وفنيا من جانب آخر ، فلنتأمل خفاف بن ندبة وهو يخوض تجربتـــه في الطيف مع محبوبته أسماء ، فبعد أن يحدد الأماكن التي قطعتها أسمـــاء وصـــولا إليه تحديدا دقيقا ، ويصف حسنها وجمالها ، إذ يقول : (٣٦)

ألا طرقت أسماء في غر مطـرق وأنى إذا حلت بنجران نلتقـــي
سرت كل واد دون رهوة دافـــع وجلذان أو كرم بلية محـــدق
تجاوزت الأعراض حتى توسّـنت وسادي بباب دون جلذان مغلق

بغر الثنايـــا خيف الظلم نبتـــه وسنة رئم بالجنينة مونـــــق

نراه يبدأ بالحديث عن ذكرياته معها حديثا يغلب عليه طابع الإيجاز ، فهو لا يفصح عـــن تفاصيلها ، سوى إفصاحه عن انه تعلل برؤيتها في زمن حدده بســاعة ، وإفصاحه عن زمــان التفرق ، الذي حدده بالمحاق وهو آخر يوم من أيام الإقامة فــي الحج ومكانه ، الذي حدده بــوجّ وهو وادي في الطائف ، إذ يقول :

ولم أرها إلا تعلـــة ســـاعة على ساجر أو نظرة بالمشرق

وحيث الجميع الحابسون براكس وكان المحاق موعدا للتفـــرق

بوجّ وما بالي بوجّ وبالـــــــها ومن يلق يوما جدة الحب يخلق

أما إذا ما تأملنا تجربة تميم بن أبي بن مقبل في الطيف فسنجد أنها تجربة وافيـة ، يغلـــب عليها الطابع التفصيلي ، وتنم عن قدرة فنية رفيعة المستوى ، وتكشف عن مخيلة شعرية بعيدة الأفق ، إذ استطاع الشاعر أن يطلعنا على تفاصيل ذكرياته فــي تلك الليلة الحلمية التي قضاهــا بصحبة محبوبته كبيشة في تلك الديّرة المضـــــيئة ، حيث الانتشـــــاء بالخمـرة المعتقــة ، والاستمتاع بالغناء الساحر ، والتي تمنى الشاعر لو أن كل الليالي تكون كهذه الليلة في متعتهــا ولذتها ، والتي تتميز عن غيرها من الليالـــي بأنها ليلة هانئة سعيدة قد حالفها السعد ، في حين أن غيرها قد رافقتها النحـــوس ، والتي يبكي غيره تحسرا وشوقا على الاستمتاع بمثلهـــــا واقتناص لذاتها ، إذ يقـول : (٣٧)

ليت الليالـــي يا كبيشـــة لم تكن إلا كليلتنـــا بخبت طحـــــــال

في ليلة جرت النحوس بغـــيرهـا يبكي على أمثالها أمثالـــــــي

بتنا بديّرة يضيء وجوهـــــــنا دسم السليط على فتيل ذبـّـــال

حتى انتشينا عند أدكن متـــــرع جحل أمر كراعه بعقـــــــال

مما تعتق في الدنان كأنهـــــــا بشفاه ناطلهـــا ذبيح غـــــزال

وغناء مسمعة جررت لصوتهـــا ثوبـــي ، ولذة شارب وفضـــال

صدحت لنا جيداء تركض ساقهـــا عند الشروب مجامع الخلخـــال

فضلا تنازعها المحابض صوتهـــا بأجش لا قطع ولا مصـــــحال

فإذا وذلك يا كبيشـــة لم يكـــن إلا كحلمـــة حالم بخيـــــال

طرقت كبيشة والركاب مناخـــــة ملقـــى أزمتها ببطـــن الإل

وهكذا يتضح لنا مما تقدم أن الشاعر الجاهلي قد أعطانا صورة – وافية في بعـــــض الأحيان وموجزة في أحيان أخرى ، إذ يرتبط ذلك بالحالة النفسية للشاعر - عن ذكرياتـــــــه مـــــــــع محبوبته تارة وأهله وقومه تارة أخرى وأصحابه وندمائه تارة ثالثة وذلك من خلال تجاربه فـي المواقف التي استحضر فيها ذكرياته كموقف الأطلال وموقف الرحيل وموقـــف الشيخوخـــــــة وموقف الحزن والإحساس بالفقد وموقف الطيف .

الخاتمة

وفي الختام يمكن إجمال نتائج البحث في النقـــــاط الآتية :

- إن الشاعر الجاهلي قد اتخذ من الذكرى جسرا فنيا حاول من خلاله – موظفا لهـــــــذا الغرض كل ما يملك من طاقات فنية - أن يصل ما ضيه الذي يتمثل بذكرياته وتجاربـه في الحياة بكافة أبعادها العاطفية والفنية والاجتماعية والوجودية ، بحاضره ومستقبلـه .
- إن الذكرى كانت تمثل للشاعر الجاهلي قاعدة رصينة لانطلاقه نحو الحياة والتشبث بها ، والاستمتاع بملذاتها .
- اتخذ الشاعر الجاهلي من الذكرى وسيلة فاعلة لمواجهة قهر الزمان من جهـــــــــة ، ومواجهة الواقع – بكل تناقضاته وافرازاته – الذي يعيشه من جهة أخرى .
- إن الذكرى كانت تمثل للشاعر الجاهلي رافدا ثرا وينبوعا معطاء ، استطاع الشاعر من خلاله أن يغذي تجاربه الشعرية ، ويثريها بمقومات الإبداع الشعري .
- استطاع البحث أن يبين أن الشاعر الجاهلي يمتلك ذاكرة قوية قادرة على لملمـــة كـــل شتات ذكرياته وحيثياتها والاحتفاظ بها ، ومن ثم تنسيقها وعرضها بالصورة التي تنبـئ عن امتلاكه زمام الإبداع الشعري ومقوماته الأصيلة .
- استطاع البحث أن يبين أن الشاعر الجاهلي كان بعيد الأفق وكان ذا خيال واســـــــع ، استطاع أن يسبغ على ذكرياته وتجاربه مسحة منه وتلوينا أخرج هذه الذكريـــــــات مخرجا فنيا لائقا .

الهوامش

١- ينظر: الشعر الجاهلي/ خصائصه وفنونه: د. يحيى الجبوري: ص٢٤٥
٢- ينظر: نفسه: ٢٥٠
٣- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام: د. شكري فيصل:ص١٢٦
٤- ديوانه : ص٨ ،
٥- من الجدير في هذا المقام أن نشير إلى بعض الآراء الوجيهة في تفسير هذه الوقفة الطللية ، فمثلا يرى الدكتور محمود عبد الله الجادر أن الشاعر لايبكي المرأة الحبيبة ولا يدعو صاحبين حقيقيين وإنما يبكي على مملكة كندة ويدعو قبيلتي كندة وحمير للبكاء معه على مملكة أبيه المنهارة ليكون هذا البكاء حافزا له على الثأر واسترداد الملك الضائع . ينظر : قراءة معاصرة في نصوص من التراث الشعري : ١٨ ، كما يرى الدكتور وهب رومية أن الشاعر في مخاطبته لصاحبيه واستيقافه لهما ، إنما يخاطب المجتمع الإنساني بأسره ويستوقفه ويحضه على البكاء ، وهو حين يبكي الحبيب ، إنما يبكي الإنسان والوجود الإنساني في ضعفه وانكساره وتلاشيه . ينظر : شعرنا القديم والنقد الجديد : ٢٣٠
٦- ينظر : دراسات في الشعر الجاهلي : د. يوسف خليف ، ص١٢٧
٧- ينظر : جدلية القيم في الشعر الجاهلي : د. بو جمعة بو بعيو : ص٤١
٨- شرح المعلقات السبع : الزوزني : ص١٦٧ ، ولمزيد من الاطلاع ينظر: ديوان امرئ القيس : ص ٢٧، ص ٧٨، ص ٨٥، ص ٨٩، شرح اختيارات المفضل: ج٢: ص٨٣٠، ص١٠٠٠، ديوان ابن مقبل: ص٢٩٥،ص٢١٦، ص١٢٣، ص٤١ ديوان الأعشى: ص٣، ديوان بشر بن أبي خازم: ص٢٠٨ ، قصائد جاهلية نادرة ، ص٢٠٠،ص١٢
٩- جدلية القيم في الشعر الجاهلي : ص٤٩
١٠- ينظر : نفسه : ص٤٩
١١- ينظر : دراسات في الشعر الجاهلي : ص١٢٨
١٢- ديوانه : ص١٢٨ ، وينظر : ديوانه : ص١٣٢ ، ص٩٧
١٣- شرح ديوانه : ص ٣٦٣
١٤- ينظر مثلا : مطلع معلقة الأعشى إذ ابتدأها بموقف الرحيل أو الوداع ، إذ يقول : ودع هريرة أن الركب مرتحل فهل تطيق وداعا أيها الرجل الديوان : ص٥٥ ، ومطلع قصيدة علقمة بن عبدة المفضلية :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

شرح اختيارات المفضل : ج ٢: ص١٦٠٠
ومطلع قصيدة بشر بن أبي خازم :

ألا بان الخليط ولم يزاروا وقلبك في الظعائن مستعار

الديوان : ص ٩٠
١٥- ينظر : تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام : ص١٢٤
١٦- ديوانه : ص٩
١٧- نفسه : ص٩

١٨- ديوانه : ص٧ .
١٩- ديوانه : ص٩٠ .
٢٠- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام : ص١٣٣ .
٢١- ينظر : الأدب الجاهلي/ قضايا وفنون ونصوص : د. ص٣٤٥ .
٢٢- شرح ديوانه : ص١٢٥ .
٢٣- ديوانه : ص٥٩ .
٢٤- ديوانه : ص١٠١ .
٢٥- شرح اختيارات المفضل : ج٢ ص١٦٥٧
٢٦- ينظر : الأدب الجاهلي / قضايا وفنون ونصوص : ٣٥٨
٢٧- ينظر : الحياة والموت في الشعر الجاهلي : د . مصطفى عبد اللطيف جياوؤك : ١٩٨
٢٨- ديوانه : ص٤٥
٢٩- ديوانه : ٢٨ ، وينظر : قصيدته البائية : ٢١
٣٠- ديوانه : ٢٨
٣١- ديوانه : ١٠٩
٣٢- ديوانه : ٩٧ ، وينظر : قصيدة أبي دؤاد الأصمعية ، ٢٠٦
٣٣- المنذر : هو ابن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر اللخمي ، وعمرو بن عدي هو ابن أخت جذيمة بن مالك الأبرش ، وقيل له الأبرش والوضاح لبرص فيه .
محرق : لقب امرئ القيس أبي المنذر لقب به لأنه أحرق من بني دارم ثمانية وتسعين رجلا ثم أكملهم برجل من البراجم وامرأة من بني نهشل . (ديوان الأصمعيات : الهامش : ص٥٧)
٣٤- ديوانه : ٥٧
٣٥- ينظر : تنوع الخطاب الشعري الجاهلي ، نجاح مهدي علوان ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ٢٠٠٨: ٧٥
٣٦- شعره : ٢٧، وينظر : ديوان الأصمعيات : ٢٤
٣٧- ديوانه : ٢٥٧، وينظر : ديوانه : ١، ديوان المرقشين : ٥١

مصادر البحث ومراجعه

- الأدب الجاهلي / قضايا وفنون ونصوص : د . حسني عبد الجليل يوسف ، ط٢، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ٢٠٠٣.
- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ، د. شكري فيصل ، ط٤، دار العلم للملايين ، بيروت .
- تنوع الخطاب الشعري الجاهلي : نجاح مهدي علوان ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ٢٠٠٨.
- جدلية القيم في الشعر الجاهلي ، د : بو جمعة بو بعيو ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠١.
- الحياة والموت في الشعر الجاهلي ، د : مصطفى عبد اللطيف جياوؤك ، وزارة الإعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٧٧.
- دراسات في الشعر الجاهلي ، د : يوسف خليف ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة .
- ديوان الأسود بن يعفر ، صنعة : نوري حمودي القيسي ، وزارة الثقافة والإعلام .
- ديوان الأصمعيات ، ت : د . محمد نبيل طريفي ، ط١، دار صادر ، بيروت ، ٢٠٠٢.
- ديوان الأعشى ، ت : د . م . محمد حسين ، مكتبة الآداب بالجماميزت .
- ديوان امرئ القيس ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٣ ، دار المعارف بمصر .
- ديوان بشر بن أبي خازم ، تقديم وشرح : د . صلاح الدين الهواري ، ط١ ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٩٧.
- ديوان تميم بن أبي بن مقبل ، ت : د . عزة حسن ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٦٢ .
- ديوان طرفة بن العبد ، شرح الأعلم الشنتمري ، ت : درية الخطيب ، لطفي الصقّال ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق .
- ديوان عبيد بن الأبرص ، ت : د . محمد علي دقة ، ط١، دار صادر ، بيروت ، ٢٠٠٣.
- ديوان المرقشين ، ت : كارين صادر ، ط١، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٨.
- ديوان النابغة الجعدي ، ت : د . واضح الصمد ، ط١، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٨
- شرح اختيارات المفضل ، الخطيب التبريزي ، ت : د . فخر الدين قباوة ، ط٣ ، دار الفكر المعاصر ، دمشق ، ٢٠٠٢ .
- شرح المعلقات السبع ، أبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٩.
- شرح ديوان حسان بن ثابت ، ضبط وتصحيح : عبد الرحمن البرقوقي ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة : أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، نسخة مصورة عن دار الكتب ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤.

- الشعر الجاهلي /خصائصه وفنونه ، د . يحيى الجبوري ، ط٤، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٣.
- شعر خفاف بن ندبة السلمي ، ت : د . نوري حمودي القيسي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٧.
- شعرنا القديم والنقد الجديد : د . وهب أحمد رومية ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٦ .
- قراءة معاصرة في نصوص من التراث الشعري : د . محمود عبد الله الجادر ، دار الشؤون الثقافية العامة . بغداد ، ٢٠٠٢ .
- قصائد جاهلية نادرة ، د . يحيى الجبوري ، ط٢، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٨.